بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة صلاة الجمعة للشيخ الدكتور مُحَمَّد شريف الصواف

لَاهِيَةً قُلُوبُهُم

الحمد لله، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، الحمد لله الذي اصطفانا للإيمان، الحمد لله الذي خصنا بالإسلام، الحمد لله الذي جعلنا أمة القرآن، الحمد لله الذي جمعنا في بيت من بيوته، على طاعة من أحب الطاعات إليه، في ساعة من أحب الساعات إليه، جمعنا لنذكره ونشكره، ولنكون في ساعتنا هذه من أهل رحمته ومغفرته، نسأل الله تعالى أن نكون في ذلك كله من المخلصين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا مُحَمَّداً عبد الله ورسوله، خير نبي اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته ومن اهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين.

أما بعد يا عباد الله، يقول الله تعالى في آية من آيات من كتابه الكريم: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١-٣] اقترب للناس حسابهم، فما بقي من أيام حياتهم، وما بقي من أيام الدنيا سوى القليل القليل، الذي سيمضي كلمح البصر، الذي سيمضي سريعاً، ثم يكون هذا الإنسان في الدار الأخرة، وفي موقف آخر، بين يدي ربه، ليسأله عن حياته وعن ساعاتها وأيامها وأعوامها، كيف عاشها وكيف أمضاها.

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُم﴾ هل تستشعر أن الحساب قريب؟ هل تستشعر أن اللقاء مع الله تعالى قريب؟ هل تستشعر أن موعد موقفك بين يدي الله سبحانه وتعالى أقرب إليك من شيء تأمله وترجوه في هذه الحياة في المستقبل الذي تتمنى أن تحياه؟ ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُون﴾ أكثر الناس في غفلة، أكثر الناس لا يُفكرون في بيوم سيقفون به بين يد الله، أكثر الناس لا يُميزون بين الخير والشر، أكثر الناس لا يُفكرون في عاقبة أعمالهم، أكثر الناس لا يذكرون الله تعالى ولا يتدبرون القرآن، أكثر الناس لا يُؤدون الطاعة والعبادة تفكراً وتأملاً، وهذه الصور كلها هي من لوازم الغفلة ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُون﴾ ثم يذكر الله تعالى لنا صورة واحدة من صور الغفلة التي تتحقق في أكثرنا، نسأل الله تعالى العافية، ونسأل الله القلوب الحاضرة معه سبحانه: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَث﴾ إذا جاءتهم الآيات، إذا قرأ عليهم القرآن، وهنا ينبغي التنبيه إلى أن القرآن قديم، ولكن الله تعالى يُسميه في هذه الآية

محدث من حيث أنه مُحدث النزول، من حيث أنه حَديث النزول إلى الأرض، وكان هذا عِندما يتنزل على النبي المصطفى ﷺ فقد كان في ساعة تنزله مُحدث النزول، ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يسمعوه هذه الآيات التي هي كلام الله القديم، يسمعون هذه الآيات التي هي النور الذي أنزله الله تعالى ليُخرج الناس، من الظلمات إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة، ومن الضلال إلى الهدى، يسمعون هذه الآيات وقلوبهم لاهية، يسمعون هذه الآيات ولا يتأملون ولا يتفكرون فيما أراده الله تعالى التي أنزلها ليخاطبك بها، تأمل شدة الموقف، تأمل عظم الذنب، يأتيك الخطاب من الله كلاماً بَيناً، أنزله الله بلغتك، أنزله الله تعالى بلسانك، تَفهمه ولا يَفهمه غيرك، زُرنا بلاداً كثيرة من بلاد المسلمين غير العرب، وهناك تستشعر أخي الكريم عَظمة أن الله تعالى أنزل القرآن بلغتك، عندما تَنزل إلى مساجدهم وتصلي الجمعة، هناك وتسمع الخطيب وهو يَقرأ القرآن الكريم، وهو يَستشهد بالأحاديث النبوية باللغة العربية، وتستشعر أن المستمعين من غير العرب لا يَفهمون ما يقول هذا الخطيب، ولذلك لا بد من بيان بلغتهم، وشتان بين من يسمع كلام الله كما أنزله الله، وبين من يسمع النبي المصطفى كما قاله النبي المصطفى ﷺ، وبين من يُنقل إليه المعنى بلغة أخرى، هل تَدبرنا القرآن عندما نَقرأه أو عندما نستمع إليه؟ آية تحتاج منا إلى تأمل، وتحتاج منا إلى خُطب متلاحقة، نتحدث فيها عن معاني الغفلة وعن أسباب الغفلة، وكيف نخرج إن شاء الله من الغفلة إلى الحضور مع الله تعالى، ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُم﴾ نسأل الله تعالى أن لا نكون منهم.

وفي آية أخرى يُحدثنا الله سبحانه وتعالى عن أهل الغفلة أيضاً فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّم﴾ أي خلقنا لجهنم ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْس﴾ لماذا جعل الله تعالى هؤلاء الجن والإنس من أهل النار؟ لماذا جعلهم الله من أهل جهنم؟ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] إذا هي الغفلة التي جعلت أولئك الخلق من أهل النار، ومن إعجاز خطاب الله سبحانه وتعالى في كتابه أنه يَقول لنا ما سبب الغفلة وما صورة الغفلة، كيف يا رب؟ ولماذا يا رب قلت أن أولئك الخلق إنهم غافلون؟ لماذا يا رب؟ يَقول الله تعالى: لأننا آتيناهم القلوب، والقلوب هي الأوعية التي يُريد الله تعالى أن تعي عنه، القلوب هي الأوعية التي يُريد الله تعالى أن تكون

مُستقر نور الفهم عن الله تعالى، يَقول الله: هؤلاء الذين ذرأناهم لجهنم الذين هم الغافلون، هؤلاء لهم قلوب لا يفقهون بها، لا يستعملونها للفهم والتدبر، لو شاؤوا لاستعملوها للفهم والتدبر والتأمل في آيات الله تعالى، ولكنهم عطلوا هذه القلوب عن عملها، لم يَستعملوها للفهم والتدبر، لهم أعين آتاهم الله تعالى إياها ولكنهم لا يبصرون بها، ولو استعملوها للتأمل والتبصر لدلهم كل شيء في هذا الكون على الله سبحانه وتعالى.

الغفلة أن تنظر الأشياء فلا ترى الله تعالى من وراءها، هذه الغفلة، أما يَقظة القلب، أما عكس الغفلة، فهي ثلاثة درجات لا رباع لها، إذاً الغفلة التي جعلها الله تعالى من صور الغفلة التي يذكرها في هذه الآية، عن الأقوام الذين لهم أعين لا يبصرون بها، لا يستعملونها للإبصار الحقيقي الذي هو التأمل، حتى يَقودك هذا الشيء إلى الله، أما عكس هذه الغفلة فهناك ثلاث صور لا رابع لها:

الصورة الأولى: هي أن ترى الشيء فترى الله تعالى من وراءه، أن تنظر إلى جمال الورد، أو أن تنظر وتَشم رائحة الياسمين، ثم بعد أن تستمتع بجمال الورد ورائحة الياسمين تقول: سبحان الله، كم من نعمة جعلها الله تعالى حتى استطعت أن أميز هذا الجمال؟ كم من نعمة جعلها الله تعالى حتى استطعت أن أميز هذه الرائحة؟ هُناك إعجاز بل هناك إعجازات في خلق عَينك حتى استطاعت عينك أن ترى هذه الوردة، ثم أن ترى هذه الوردة بهذه التفاصيل الدقيقة، ثم أن ترى هذه الوردة بهذه الرؤيا ثلاثية الأبعاد، ثم أن تميز درجات ألوان الوردة، ثم أن تكون دقة رؤيتك لهذه الوردة بهذا الحال، ولا تحتاج إلى مقرب ولا تحتاج إلى مبعد، كل هذا إعجاز في الخلق، وهناك كلام طويل عن هذا الموضوع حتى استطعت أن تميز جمال هذه الوردة، ومن خلق الله الذين خلقهم كالحشرات كالحيوانات ما لا يستطيع أن يميز هذا الجمال، لأن الله لم يجعل له في عينه ما يَستطيع أن يرى به الألوان ويرى هذه الوردة بهذه الصورة الثلاثية الأبعاد، ولذلك عندما ترى هذه النعمة تقودك ويقودك البصر إلى أن تقول عقب ذلك: سبحان الله، وهذا ضِد الغفلة.

عندما تشم رائحة الياسمين تُفكر، كم مِن نعمة جعلها الله تعالى لي حتى استطعت أن أميز هذه الرائحة؟ ما هي طريقة الإحساس التي جَعلها الله تعالى في أنفي، ثم طريقة تفكير هذا الإحساس في الدماغ، حتى استطعت أن أميز هذه الرائحة وأقول في عقبها: سبحان الله؟ هذه الدرجة الأولى من عدم الغفلة، وهي أن لا ترى شيئاً إلا وترى الله تعالى بعده.

وهناك درجة ثانية وهي أعظم وأرقى، وهي أن لا ترى شيئاً إلا وترى الله معه، لا تَحتاج إلى وقت طويل، ولا تحتاج إلى تفكير طويل، حتى ترى الله تعالى بعد النعمة وعقب النعمة، وإنما أنت مع كل نعمة وفي كل نعمة تستشعر خلق الله، تستشعر إعجاز خلق الله، تستشعر معية الله، تستشعر رحمة الله، تستشعر فضل الله.

أما الصورة الثالثة الأرقى التي هي ضد الغفلة، فهي أن لا ترى شيئاً إلا وترى الله قبله، فأنت عندما تتخلص من كل درجات الغفلة -نسأل الله تعالى أن يَجعلنا جميعاً ممن ارتقى إلى هذا المقام- عندما لا تبقى فيك شائبة واحدة من شوائب الغفلة، عندها لن ترى شيئاً إلا وقد رأيت الله قبله، أنت لا ترى دائماً إلا الله، ثم ترى بعد ذلك كل الأشياء من خلال معرفتك بالله سبحانه وتعالى، هذا ضد الغفلة، وسأذكر هنا مثالاً واحداً لكنه دقيق جداً، كيف يمكن للإنسان أن لا يرى شيء إلا ويرى الله تعالى قبله، رُوي أن النبي ﷺ في غزوة مِن غزواته استلقى بعد إنهاء الغزوة، استلقى تحت شجرة يتفيأ ظلها، وجعل سيفه معلقاً على هذه الشجرة، وإذ بأحد أعدائه يأتيه فجأة، ويُوقظه بشكل مفاجئ، والسيف على عنقه ﷺ، ويقول هذا الرجل وقد أيقظ النبي بشكل مفاجئ: قد تمكنت منك يا مُحَمَّد، من يَمنعك مني الآن؟ هذا في حالة الفجأة، وإذ بالنبي ﷺ الذي تنام عينه ولا ينام قلبه، وهو على أعلى درجات يقظة القلب، وأعلى درجات الحضور مع الله تعالى، وهو على حالة المفاجأة هذه، لا يُجيب إلا بكلمة واحدة، ولكنها صادقة تَخرج من قلب حاضر بذكر الله سبحانه وتعالى، يقول: الله. هو ذلك الرجل يقول: مَن يمنعك مني الساعة يا مُحَمَّد؟ فيقول النبي ﷺ: الله. وإذ بالخوف يَستقر في قلب ذلك الرجل ويرتعد، ويلقي الله تعالى في قلبه ما يُريد من الخوف، فَيسقط السيف مِن يده، عند ذلك يَقوم النبي ﷺ ويأخذ السيف، ويقول لهذا المشرك: مَن يمنعك مني الآن؟ فيقول المشرك ما عرفه المشركون ولكنهم تركوه عناداً، يقول ما يَعرفونه من الصفة الحقيقية في سيد الخلق مُحَمَّد ﷺ، يقول ذلك المشرك: يا مُحَمَّد كن خير آخذ، هذا هو النبي المصطفى ﷺ، خير آخذ وخير معاقب وخير مسامح، وخير مَن يَعفو ﷺ، نَعود إلى كلامنا عن الغفلة، يَقول العلماء -أيها الإخوة- الغفلة هي عدم معرفة قيمة الأشياء، وعدم معرفة حقيقة الأشياء، وعدم وَضع الأشياء في مكانها الصحيح، الغفلة يمكن فهمها تماماً عندما نتحدث عما نُسميه نحن في مجتمعاتنا مُغفل، هذا المغفل الذي يَبيع الأشياء الثمينة يبيعها بقيمة رخيصة، هذا المغفل هو الذي لا يعرف العدو من الصديق، هذا المغفل هو الذي لا يَعرف قيمة ومدى الخطر في ساعة ما، لا يعرف مدى الربح والفرصة التي تكون

أمانه للربح في ساعة ما، هذا هو المغفل، وهذه هي الغفلة، الغفلة أن تعيش الحياة الدنيا ولا تَغتنم ما فيها من ساعات، الغفلة أن تمر مِن أمام الطاعات أن تمر من ساعات الخير أن تمر من مواسم الخير فلا تغتنم ما في ساعات الخير هذه، كنت قد حضرت كلام كثير حول الغفلة، ولكن نُعجله إن شاء الله إلى خطبة قادمة، ليكون الكلام مترابطاً مُستوفياً لما يَنبغي أن يكون، ولكن -أيها الأحبة- نَذكر بعض الصور التي نعيشها كثيراً، والتي هي في حقيقتها من صور الغفلة، وأنا لا أذكرها هنا إلا تنبيهاً، وأسأل الله تعالى أن تَقع في الموقع الذي يَنبغي أن تَقع فيه، حتى نكون إن شاء الله ممن يُبادر إلى الخير، ويَجتنب ما يُباعد بيننا وبين الخير.

أيها الأحبة: قُلنا أن الغفلة مِن معانيها أن الله تعالى قد جعل لنا أجراً عظيما ثواباً كبيراً جداً على أشياء صغيرة، هذا من فضل الله علينا، مثلاً النبي ﷺ قال: (ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها) هذه شيء قليل، ركعتا الفجر، يعني سنة الفجر وليست فريضة الفجر، سنة الفجر القبلية خير من الدنيا وما فيها، أن لا تَفهم هذا المعنى، وأن تُفرط بهذا المعنى، هذا من الغفلة.

النبي ﷺ ذكر لنا في الأحاديث الصحيحة التي هي متواترة من حيث المعنى، والتي ذكرناها كثيراً، أن مَن قال عقب كل صلاة سبحان الله ثلاثاً وثلاثين، والحمد لله ثلاثاً وثلاثين، والله أكبر ثلاثاً وثلاثين، ثم جعل تمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يقول لنا النبي ﷺ هذه الدقائق المعدودة إن كنت فيها على هذه الحال بعد الصلاة غُفرت ذنوبك وإن كانت مثل زبد البحر، إذا فرطنا في هذه الدقائق، وفرطنا في أن نقول هذه الكلمات المباركات التي جعلها الله من خصائص هذه الأمة، الأمم من قبلكم -أيها الإخوة- ما كانت تعرف هذه الكلمات، هذه الكلمات ادخرها الله لكم، فإن فرطنا فيها فهذا من الغفلة، ولذلك تعالوا نتعاهد على أننا إذا قلنا في كل صلاة فَريضة: السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله، تعالوا نتعاهد، وسترون خير ذلك -أيها الإخوة- الصلاة لم تنتهِ بعد، قل لنفسك، قل لشيطانك، وأنا أقول لنفسي وأقول لشيطاني: الصلاة لم تنته بعد، ما زال هناك تتمة، سبحان الله ٣٣ مرة، الحمد لله ٣٣ مرة، الله أكبر ٣٣ مرة، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وستجد خير ذلك، وستجد بر ذلك، وستجد عطاء ذلك.

آخر صورة -أيها الأحبة- من صور الغفلة التي نسأل الله أن يُجيرنا منها، الآن عندما يَستيقظ القلب ويستيقظ الإيمان، يَأتي الإنسان ليقول -وهذا جرى معي في مرة من المرات- يأتي الإنسان ليقول، قال لي

أحد كبار الأغنياء في سوريا، أنا سأتبرع بمبلغ كذا شهرياً لأمر من الأمور الخيرية، هذا في حالة يقظة الإيمان، بدأ بالتبرع شهراً واحداً، في الشهر الثاني قال: والله أنا أعتذر ما تيسرت الأمور، انتبهوا إخواني! أين الغفلة؟ الغفلة أنه –وأنا أعلم يقيناً في حاجته الشخصية، في مسلتزمات أمره، في رفاهيته، في كمال وكماليات ما يأتي لبيته ولأولاده وأحفاده– والله أقسم ما نقص من ذلك مثقال ذرة، ما خفض من ذلك مثقال ذرة، ولكن فيما يَعود على آخرته، فيما يَلقاه في الدار الآخرة قال: والله ما عاد أحسن، يعني لا أستطيع أن أدفع هذا المبلغ. هذه الغفلة، الآن لو قال أنا سأخفض المبلغ بنفس النسبة التي أخفض فيها ما أعيش به من أسرتي، هذا من يقظة القلب، أما أقطع ما يعود علي بالخير في الدار الآخرة، وأبقى على السرف والترف والتبذير الذي أعيشه في بيتي، هذه هي الغفلة.

نسأل الله تعالى أن يَجعلنا ممن استيقظت قلوبهم، ونسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل القلوب التي تفقه عن الله، ومن أهل الأبصار التي تَرى فيَقودها بصرها لزيادة معرفة بالله، ومن أهل الأسماع التي تَسمع فتتفكر فيما تَسمع فيقودها هذا التفكر إلى زيادة معرفة بالله، للحديث بقية إن شاء الله، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروا الله، فيا فوز المستغفرين استغفروا الله.

بتصرف

مديرية أوقاف دمشق